﴿سورة الكافرون﴾

وفيها مسألتان :

المسألة الأولى: لم بدأت السورة بـــ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١)﴾ ولم تقل: "الذين كفروا" ؟

اختارت السورة النداء عليهم بيا أيها الكافرون بدلا من الذين كفروا لأن هناك فرق بين الصيغتين، لأن هذه السورة قد نزلت فيهم كاملة فكان لا بد أن يكون وصف "الكفر" لهم ملازماً وملاصقاً، فكان استعمال صفة الكافرون أولى فى هذا المقام حيث يدل على أن الكفر صفة ملازمة لهم، ثابتة فيهم، وأنهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق؛ لأنهم ليسوا على دين، خلافًا لما كانوا يدَّعون من أنهم على دين إبراهيم عليه السلام؛ وإنما هم أصحاب ظواهر يهمهم أن يستروها لأنهم كافرون، ولا التقاء بين الكفر والإيمان في طريق .

بيد أن النداء عليهم بـــ "يا أيها الذين كفروا " لا يحمل نفس هذه الملازمة فى الصفة حيث يحتمل أن يكونوا قد آمنوا ثم كفروا ، أو كفروا فى الماضى وسوف يؤمنون فى المستقبل ، أى أن معنى ملازمة الكفر ودلالته أقوى فى الوصف الذى استعملته السورة عنه فى "يا أيها الذين كفروا " .

المسألة الثانية: ما الفرق بين ﴿لا أَعْبُدُ ﴾ و ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ﴾ ؟

والجواب: أنالجملة الأولى صياغتها فعلية **﴿أعبد﴾** فعل مضارع، والجملة الثانية صياغتها اسمية **﴿عابد﴾** اسم فاعل، ومعلوم أن بينهما فرق فى الدلالة وبيانه كما يلى :

﴿لا أَعْبُدُ﴾ هذا فِعْلٌ مُضارع، **﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ﴾** هذه اسمُ فاعل، وشَتَانَ بين الكلمتين، فإذا قلتَ: لا أعبد، فأنا أَنْفي عن نَفْسي فِعْل العِبادة، ولكن إذا قلت: **﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ﴾** ، فأنا أَنْفي عن نفْسي إمْكانِيَّة العِبادة، كأن تقول: فُلانٌ

لم يسْرِق، فأنت هنا نَفَيْتَ عنه فِعْلَ السرقة، أما إذا قلتَ: ما هو بسارِق فقد نَفَيْتَ عنهُ إمْكانِيَّة السَّرِقة، فلا يُعْقَلُ أنْ يسرِق، فاسمُ الفاعل أشَدُّ في النَّفْي من الفِعْل المُضارع، فله معنى الاسْتِمْرار، مثلاً أنا أكتب، يُمْكن أنْ أكْتُبَ مَرَّةً في حِياتي، فَيُقال: أنا أكتُب، فعل مُضارع، أما أنا كاتب، فَهِيَ تعْني أنَّ مِهْنتي الكِتابة، فربنا عز وجل قال: ﴿**لا أَعْبُدُ**﴾ وفى الثانية: ﴿**وَلا أَنَا عَابِدٌ**﴾ فيصير المعنى: فلا أعبد آلِهَتَكم، وليس عندي إمْكانٌ إطْلاقاً أنْ أعْبُدها، لا أعبُدها ولن أعْبُدها! فالإمْكانِيَّة مُنْعَدِمة، فالأوَّل نَفَيْنا به الفِعْل، وفي الثاني نَفَيْنا الإمْكانِيَّة هذا معْنى آخر من معاني التَّكْرار.

وفى السورة لطيفة تحسن الإشارة إليها :

حيث يتوقف المسلم المهتم بسنة حبيبه ﷺ ليتساءل عن سر جمع الرسول ﷺ كثيراً بين سورتى "الكافرون" و"الصمد" فى كثير من صلوات السنن، ومنها: سنة الفجر، وسنة المغرب، وركعتى الطواف .

والسبب فى ذلك راجع إلى دلالة السورتين على التوحيد لله ﷻ وإخلاص المعتقد والعبادة والتوجه له ﷻ، وهذا ما عبَّر عنه ابن قيم الجوزية حين أشار إلى أن هاتين السورتين قد اشتملتا على نوعى التوحيد الذى لا نجاة للعبد بدونهما، وهما :

(**النوع الأول**: توحيد العلم والاعتقاد، المتضمِّن تنزيه الله تعالى عمَّا لا يليق به، من الشرك والكفر، والولد والوالد، وأنه إله أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد، فيكون له مِثْل. ومع هذا فقد اجتمعت له جل جلاله صفات الكمال كلها؛ فتضمنَّت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال ونفي ما لا يليق بجلاله من الشريك أصلاً وفرعًا، وشبهًا ومثلاً.. فهذا هو توحيد العلم والاعتقاد.

والنوع الثاني: توحيد القصد والإرادة؛ وهو أن لا يُعبدَ إلا إياه، فلا يُشرَك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود. وسورة (الكافرون)

مشتملة على هذا النوع من نوعي التوحيد، فتضمنت بذلك السورتان نوعي التوحيد، وأخلصتا له) [1] .

وعلى هذا فإن سورة الكافرون قد حوت التوحيد العملى بينما حوت سورة الإخلاص التوحيد العلمى العقدى، فاستحقتا أن تجمعا معاً فى الصلاة، أخرج ابن حبان في صحيحه: باب "ذكر إثبات الإيمان لمن قرأ سورة الإخلاص في ركعتي الفجر"، وساق بسنده إلى جابر بن عبد الله ﷺ أن رجلاً قام فركع ركعتي الفجر، فقرأ في الركعة الأولى: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ(١)﴾**، فقال النبي ﷺ: "هَذَا عَبْدٌ عَرَفَ رَبَّهُ"، وقرأ في الأخرى: **﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾** حتى انقضت السورة، فقال النبي ﷺ :"هَذَا عَبْدٌ آمن بِرَبِّهِ")[2].

---

(١) بدائع الفوائد، محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية، ١/ ١٣٨، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

(٢) صحيح ابن حبان، ٢١٣/٦، باب النوافل ورقمه ١٤١٤.